وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكفى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسنرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصَفَّى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون فى صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

٣

الشعر فى عصر الخلفاء الراشدين

عَمَّت أضواء الإسلام فى الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن فى الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قُضى على الوثنية فى أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر فى نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلَّم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبعيرهم ، فاستشار الصدِّيق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخِرَّ من السماء فتخطفنى الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيى هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجَّه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حَسُنَ إسلامهم فى القبيلتين أن يردوهما عن غيِّهما ، ولم يلبث أن التقى بهما خالد عند بئر بُزَاخة ، فنكَّل بهما تنكيلا شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد توًّا إلى تميم ومتنبئتها سَجاح فلم تلبث بعد مناوشات صغيرة أن أذعنت له ،

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ، ومثله أنس بن زنيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم ثاب إلى رشده ، فقدم عليه معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول فى تضاعيفها[١] :

وما حملتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها ... أَبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمَّدِ

ونَظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرة يأسَى فيها على مافرَّط فى جَنْب الله ورسوله على شاكلة قوله [٢] :

لعمْرُك إنى يوم أحمل رايةً ... لتغلبَ خَيْلُ اللَّات خَيْلَ محمدِ
لكالمُدْلج الحَيْران أظلم ليلــه ... فهذا أوانُ حين أهدِى وأهتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم فى ذلك شعراء المدينة ، وتُنْسَبُ إلى الأعشى قصيدة فى مديحه[٣] لا شك أنها منحولة ، وتُنسَب لأبى طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ... ربيعُ اليتامى عِصْمةٌ للأَرامل

ويقول ابن سلام : «قد زِيد فيها وطُوِّلت»[٤] وتُنسَبُ إلى عباس بن مرداس فارس بنى سُلَيْم أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله [٥] :

نبىٌّ أتانا بعد عيسى بنــاطقٍ ... من الحق فيه الفَصْلُ منه كذلكا
أميناً على الفُرْقان أول شافعٍ ... وآخــر مبعوثٍ يجيب الملائكا

ونُظم كثير من المراثى فى قتلى المسلمين والمشركين ، ورثاءُ قُتَيْلة لأبيها النَّضْر بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل للرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رُثِى به قصيدة حسان التى يستهلها بقوله [٦] :

ما بالُ عينى لا تنام كأنما ... كُحِلَتْ مآقيها بكُحْل الأَرْمَدِ

---

(١) الإصابة لابن حجر ١/٦٩ .
(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٢٥ .
(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٠٥ .
(٦) ديوان حسان (طبعة هرشفيلد) ص٥٨ .

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرّضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت، ورثاؤه لقتلى بدر مشهور[١] ومثل الأسود بن يَعْفر الذى أشاد بانتصارها فى يوم أحد[٢] ، وقد ماتا فى أثناء هذا الصراع . وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التى لما تدخل فى الإسلام . وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر[٣] :

قَضَيْنَا من تِهامةَ كلَّ وِتْرٍ ... وخَيْبَرَ ثم أَحجمْنا السيوفا[٤]
نخيِّرها ولو نطقتْ لقالتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْساً أو ثَقِيفا[٥]
فلستُ لحاصنٍ إن لم تروها ... بساحة داركم منا أُلُوفَا[٦]
فننتزعَ العروش بَبَطْنِ وَجٍّ ... ونترك داركم منا خُلوفا[٧]
ونُرْدِى اللَّات والعُزَّى ووَدًّا ... ونَسْلُبَها القلائد والشُّنُوفا[٨]

وتُفْتَحُ مكة فى السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية فى شعراء هُذَيْل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهُذَلى فى بكائه لدُبَيَّة سادن العُزَّى حين قتله خالد بن الوليد[٩]. وتظل بقية أخرى فى ثقيف ومعاركها مع الرسول فى حُنَيْن . على أنه بمجرد أن دخلت مكة فى الإسلام أُدمجت الجزيرة كلها فيه، وأخذت وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدينَ الحنيف. وفى هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

---

(١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١.
(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .
(٣) ابن سلام ص ١٨٤ .
(٤) الوتر : الثأر .
(٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف .
(٦) الحاصن : المرأة العفيفة .
(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم . وج : الطائف ونواحيها . والحى الخلوف : الذى فارقه الرجال، يقصد أنهم سيبيدونهم .
(٨) نردى : نهدم . اللات والعزى وود : أصنام . القلائد : السموط . الشنوف : جمع شنف وهو القرط .
(٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٢/١٤٨ وانظر الأصنام لابن الكلبى ص ٢٤ وما بعدها .

وفى الأغانى أن حساناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»[١] . ومن المؤكد أن حساناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبتْ على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة ، لأنها هى التى كانت تؤذى نفوس القرشيين المكيّين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم ، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزُّون بها ، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا فى الأحساب والأنساب ، وعيّرا سادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير . وطبيعى لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم فى ذم المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والطعن فى الأعراض والأحساب ، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مُبيرة تأتى على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار ، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون فى دينه الحنيف .

وكان يَشْرَكُ شعراء قريش فى التأليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الجوار[٢] وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذّلون عنه قريشاً والعرب ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتِمّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم فى هذا الفساد كعب بن الأشرف[٣] ، وقد بلغ من سوء فعله أنْ كان يشبّب بنساء الرسول ونساء المسلمين ، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله فى رهط من الأنصار[٤] . غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سرًّا وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية، فاضطر الرسول إلى إجلائهم عن المدينة ، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلائهم عن الجزيرة .

---

(١) أغانى ٤/١٣٨ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبى) ٢/١٤٧.

(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/١٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية ٣/٥٤ وما بعدها .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أحُدٍ فى كلمة :

فجئْنا إلى موجٍ من البحر وَسْطه ... أَحابيشُ منهم حاسِرٌ ومقنَّعُ[١]
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّةٌ ... ثلاثُ مئين إن كثُرنا وأربع[٢]
فراحــوا سراعاً مُوجِفين كأنهم ... جَهَامٌ هَرَاقتْ ماءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ[٣]
ورُحْنــا وأُخْرَانا بِطاءٌ كأننا ... أسودٌ على لَحْمٍ ببِيشَةَ ظُلَّعُ[٤]

وقال فى أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُرَعْبِلُ بَعْضُهُ ... بعضاً كمَعْمَعَةِ الأَباءِ المُحْرَقِ[٥]
فَلْيَأْتِ مأسدةً تُسَلُّ سيوفُهــا ... بين المذادِ وبين جِزْعِ الخَنْدَقِ[٦]

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْن إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مُؤْتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله[٧] :

نجالدُ الناسَ عن عُرْضٍ فَنأْسرهم ... فينا النبيُّ وفينا تنزل السُّوَرُ[٨]
وقــد علمتم بأنا ليس غالبَنا ... حَيٌّ من الناس إن عَزُّوا وإن كثُروا
يا هاشمَ الخيرِ إن الله فضَّلكم ... على البَرِيَّةِ فَضْلاً ماله غِيَرُ[٩]
فثبَّت اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ ... تثبيتموسى ونَصْرًا كالذى نُصِروا[١٠]

---

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا عند جبل يسمى حبشيا. الحاسر : الذى لا بيضة له عكس المقنع .
(٢) النصية : الخيار والأشراف .
(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب أفرغ ماءه..
(٤) بيشة : مسبعة فى واد كثير الشجر . ظلع : من الظلع وهو العرج. يكنى بذلك عن سيرهم البطىء المطمئن .
(٥) يرعبل : يمزق . المعمعة : صوت لهب النار فى القصب . الأباء : أجمة القصب . يصف أصوات المعركة .
(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد : موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .
(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .
(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم لا يبالون من يضربون .
(٩) غير : تغيير .
(١٠) يقصد الرسل .

أثبت لابن الزِّبَعْرى قصيدته التى قالها فى نفس اليوم[١] ، والتى يقول فيها :

ليت أشياخى ببدر شهدوا ضَجَرَ الخَزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ[٢]
حين ألقتْ بقُبـاء بَرْكَهَا واستحرَّ القتلُ فى عبد الأَشَلْ[٣]
فقبلنا النِّصْفَ من سادتهم وعَـدَلْنا مَيْلَ بَدْر فاعتدل[٤]

وأيضاً فإنه أثبت لأبى عَزَّة ميمية يحرِّض فيها بنى كنانة[٥] ، وقال عن هبيرة بن أبى وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذى يقول فى يوم أحُد[٦] :

قُدْنا كنانةَ من أكنافِ ذى يَمَن عَرْضَ البلاد على ما كان يُزْجيها[٧]
قالت كنانةُ : أنَّى تذهبون بنا قلنا : النَّخيلَ ، فأَمُّوها وما فيها[٨]

وكان فى الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدَّى بها أبا سفيان بن الحارث[٩] :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجَـزَاءُ
فإن أبى ووالده وعِرْضِى لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتهجوه ولستَ له بكفْءٍ فشَرُّكما لخيركما الفِـدَاءُ

---

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .
(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركى قريش . الأسل : الرماح .
(٣) قباء : موضع بضواحى المدينة . ألقت الحرب بركها : حمى وطيسها . استحر القتل : اشتد وكثر .
(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتلى بدر .
(٥) ابن سلام ص٢١٣ .
(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .
(٧) الأكناف : النواحى . ذو يمن : موضع قريب من مكة . يزجى : يسوق ويدفع .
(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرته فيها . أموها : قصدوها .
(٩) أغانى ٤/١٣٩ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .